Al-Daleel
مؤسسة الدليل للدراسات واليحوث العقدية
Al-Daleel Institution for Doctrinal Studies

Pragmatic philosophy and its role in forming of secularism...a critical study

Fo'ad Saleh al-Shahmani

researcher in philosophy and theology, al-Mustafa International University, Iraq.

E-mail: fuadsalih12345@gmail.com

Summary

The study discusses the impact of pragmatic philosophy on secularism in terms of principles and results. Pragmatic philosophy, which thinks that correct and true idea is that which gives practical results according to empirical foundations, has gone to extremes by adopting the experimental method that is based on the discovering of material phenomena, as it has tried to exclude the metaphysical knowledge from ordinary life, and make individuals as the center and measure of everything in life. Secularism has come to existence in order to exclude religion and keep it away from social life. Studies show, with no doubt, that pragmatism has had a clear impact on secularism. Therefore, secularism, as does pragmatism, tries to focus on practical experience regarding it as man's most important tool, neglecting the other cognitive dimensions that have a dynamic role in shaping man's intellectual movement. In this article, we have tried to criticize the most important principles advocated by pragmatic philosophy and their influence on secularism. We have mentioned this influence in terms of principles such as humanism and utilitarianism, which had a big role in secularism, and then discussed the necessities resulting from adopting those principles and the extent of their impact on secularism, mentioning, in this concern, individualism and relativity.

Keywords: pragmatism, secularism, liberalism, humanism, scientific experiment, utilitarianism.

Al-Daleel, 2022, Vol. 5, No. 1, PP.29-57
Received: 2/3/2022; Accepted: 29/3/2022
Publisher: Al-Daleel Institution for Doctrinal Studies
©the author(s)

مؤسسة الدليل للدراسات والبحوث العقدية
Al-Daleel Institution for Doctrinal Studies
Al-Daleel الدليل

الفلسفة البراغماتية ودورها في بناء العلمانية.. دراسة نقدية

فؤاد صالح الشحماني

باحث في الفلسفة والكلام، جامعة المصطفى العالمية، العراق. البريد الإلكتروني: fuadsalih12345@gmail.com

الخلاصة

تبيّن هذه المقالة تأثير الفلسفة البراغماتية على العلمانية من حيث المبادئ والآثار، حيث ذهبت الفلسفة البراغماتية، التي تعتبر الفكرة الصحيحة والصادقة هي التي تعطي نتائج عملية وفق الأسس التجريبية، إلى حدود متطرّفة في تبنيها المنهج التجريبي الذي يقوم على أساس اكتشاف الظواهر المادّية، حيث حاولت أن تقصي البعد الميتافيزيقي المعرفي عن ساحة الحياة، وتجعل الفرد هو محور كلّ شيء ومقياس كلّ شيء فيها، وجاءت العلمانية من أجل أقصاء الدين، وابعاده عن إدارة المجتمع، وتبيّن أنّ البراغماتية كان لها التأثير الواضح في العلمانية. فتسعى العلمانية ومثلما ذهبت إلى ذلك البراغماتية في التركيز على التجربة العملية، وأنّها رأس مال الإنسان متناسية الابعاد المعرفية الأخرى التي لها الدور الفاعل في صياغة حركة الإنسان الفكرية، ولقد حاولنا في هذا المقال نقد أهمّ المبادئ التي نادت بها الفلسفة البراغماتية ومدى تأثيرها على العلمانية، فذكرنا هذا التأثير من حيث المبادئ: الأنسنة والنفعية التي كان لهما الدور البارز في العلمانية، ومن ثمّ عرض اللوازم المترتّبة على القول بتلك المبادئ ومدى تأثيرهما على العلمانية فذكرنا الفردية والنسبية.

الكلمات المفتاحية: البراغماتية، العلمانية، الليبرالية، الأنسنة، التجربة العلمية، النفعية.

مجلة الدليل، 2022، السنة الخامسة، العدد الأول، صص. 29-57
استلام: 2022/3/2 ، القبول: 2022/3/29
الناشر: مؤسسة الدليل للدراست والبحوث العقديّة
© المؤلف

المقدمة

لقد من الله ﷻ على الإنسان إذ منحه جوهرةً ثمينةً، تجعله يُميّز بين الخطإ والصحيح والباطل والحقّ، وطريق يستطيع من خلاله أن يتطلع من أجل الوصول إلى الكمال، وهو العقل الذي جعل الله ﷻ الثواب والعقاب به [انظر: الكليني، أصول الكافي، ج 1، ص 27]، فهو مقياس استقامة الإنسان وحصوله على السعادة في الدارين، ولكنّ السؤال الذي شغل فكر الكثير من العلماء والفلاسفة والمفكّرين على طول التاريخ، هل يستطيع الإنسان أن يصل إلى كماله المنشود من دون هادٍ ومرشد يوضح له الطريق، وتبيّن من خلال قصور العقل البشري في معرفة المصالح المطلقة التي خارج مقدوره؛ أنّه لا بدّ من وجود هادٍ ومرشد، يكون له الدور في تحقيق طموح الإنسان في السير نحو الكمال والحصول على السعادة في الدارين ضمن معارف واقعية لها القدرة على إدارة حياة الإنسان، فجاء الأنبياء والمرسلين لتحقيق هذا العطش الفكري من خلال ربط الإنسان بالله تعالى، عن طريق سنّ القوانين والتشريعات التي تصل إليهم من طريق الوحي الإلهي؛ وذلك من أجل هداية العقل وإرشاده نحو المصالح الواقعية، التي تمثّل الإرادة الإلهية في هذا الكون، وبسبب طغيان رجال الكنيسة في العالم الغربي على وجه الخصوص، ومخالفتهم للكثير من العقائد التي جاء بها الأنبياء الإلهيين، ظهر في العالم الغربي ـ ونتيجة ردت الفعل التي حصلت على الكنيسة ورجالها ـ ما يُطلق عليه بعصر النهضة، الذي أخذ على عاتقه وبجميع اتّجاهاته فصل الدين الكنسي عن الحياة والدولة، فظهر في أمريكا الاتّجاه البراغماتية الذي ركّز على عامل المنفعة وما تقدمه التجربة العلمية من فائدة عملية تساعد على تلبية حاجات الفرد، فعمّمت الظاهرة النفعية العملية لتطال الدين والقيم الأخلاقية، فما يقدّم لي منفعة فهو الحقّ والصدق والواقع، وخلافه الباطل حتّى ولو كان له حقيقة واقعية، حيث ذهبوا إلى أنّ الواقع هو الذي يولّده الإنسان الفرد ضمن ما يحقّق له من منافع عملية آنية، وإنّ القيم الأخلاقية والحق والصدق يدور مدار الإنسان الفرد، وهذا يؤدّي إلى وقوع هذه الفلسفة بالنسبية التي بدورها تنفي أي قيمة معرفية واقعية، كذلك ظهر الاتّجاه العلماني ـ الذي أصبح يُهمن على الفكر الغربي ـ الذي يدعو إلى فصل الدين عن الدولة أو بالحقيقة فصل الدين عن ساحة الحياة في جميع أبعادها، مستندين على ذلك بجملة من المبادئ والجذور الفكرية المتعدّدة التي استندت عليها العلمانية في تشيد صرحها المعرفي، منها البراغماتية، فمن خلال ما تمّ طرحه في هذا البحث تبيين أنّ الفلسفة البراغماتية، قد كان لها التأثير في العلمانية من حيث المبادئ، حيث تسعى العلمانية ومثلما ذهبت إلى ذلك البراغماتية في التركيز على التجربة العملية، وأنّها رأس مال الإنسان متناسيةً الأبعاد المعرفية الأخرى، وقد تمّ التركيز على عاملين مهمّين كان لهما الدور المهم في تأثير البراغماتية على العلمانية من حيث المبادئ، وهما الأنسنة والنفعية، وقد تمّ عرض هذين الأمرين ونقدهما وتبيين مكامن الخلل المعرفي فيهما، ومن ثمّ عرض اللوازم المترتبة على القول بتلك

المبادئ ومدى تأثيرهما على العلمانية فاكتفينا بذكر الفردية والنسبية عرضًا ونقدًا. وتـأتي أهمّيّة هذا البحث في تبيين أهمّ الآثار التي تركتها البراغماتية على العلمانية، وتبين المخاطر المعرفية التي تنتج من تبنّي هذين الاتّجاهين، فالقول بهما يعني أقصاء الدين ووجود الله تعالى من حياة الفرد والمجتمع، وتصبح الحياة عبارةً عن غابة يأكل فيها القويّ الضعيف من دون رادع ديني أو أخلاقي، ولا سيّما أنّ الحقيقة فردية والدين يتعلّق بالفرد.

أولًا: معنى البراغماتية

كلمة البراغماتية مشتقّة من اللغة اليونانية وتحديدًا من براغما (pragma) أو براغماطا (pragmata)، التي تعنّي الفعل، وهناك من يرى أنها مشتقة من الفعل براسو (prasso) أو براطو (pratto) أو براتين (prattein) الذي يشير إلى أفعل. [جديدي، فلسفة الخبرة جون ديوي نموذجًا، ص 16 و17]، وينظر إليها أندريه لالاند (André Lalande) في قاموسه الفلسفي من مستويين:

المستوى الأوّل: وهي صفة ذريعي، ذرائعي، عملي وبراغماتيكي، بمعنى أنّها صفة مأخوذة من براغما، أي فعل وخصوصًا شيء بكلّ معاني هذه الكلمة.

المستوى الثاني: الذي يتكلّم عنه لالاند فيكمن في لفظ براغماتيكا (ذريعي) أي الاسم وهو ما أقترحه الفيلسوف الفرنسي موريس بلونديل (Maurice Blondel) ليدل به على علم الفعل. [انظر: لالاند، موسوعة لالاند الفلسفية، ج 2، ص 1012 ـ 1014]

فالبراغماتية من ناحية الاشتقاق قد أخذت من اليونانية، لتعني الفعل، سواء باستعماله كاسم أو كصفة.

وهي مذهب فلسفي يقرّر أنّ العقل لا يبلغ غايته إلّا إذا قاد صاحبه إلى العمل الناجح. فالفكرة الصحيحة هي الفكرة الناجحة، أي الفكرة التي تحقّقها التجربة. فكلّ ما يتحقّق بالفعل فهو الحقّ، ولا يقاس صدق القضية إلّا بنتائجها العملية [صلبيا، المعجم الفلسفي، ص 203]، ومعنى هذا أنّه لا يوجد في العقل معرفة أوّلية تستنبط منها نتائج صحيحة، بغضّ النظر عن جانبها التطبيقي، بل الأمر كلّه رهن بنتائج التجربة العلمية التي تقطع مظانّ الاشتباه، وإذا كانت الحقائق العلمية تتغيّر بتغيّر العصور، فإنّ الصدق في الحاضر قد يصبح غير صادق في المستقبل، والنتيجة أنّ صدق القضايا يتغيّر بتغير العلم. [المصدر السابق، ص 204]

وقد أوجد هذا المصطلح الفيلسوف الأمريكي تشارلز بيرس (Charles Peirce)؛ ليدلّ بحداثة اللفظة على حداثة المذهب، وإلّا فقد كان بوسعه أن يختار كلمة أخرى من اللغة المستعملة ليشير بها إلى

الجانب العملي التطبيقي الذي أراده [محمود، من زاوية فلسفية، ص 202]، ثمّ تطوّر هذا المصطلح على يد وليام جيمس ومن ثمّ جون ديوي، وإن اتّفقوا في الأصل، ولكن لكل واحد منهم نظرته الخاصة للبراغماتية. [النشار، مدخل جديد إلى الفلسفة، ص 164]

ثانيًا: معنى العلمانية

تطلق مفردة سكيولاريزم (secularism) في اللغة الإنجليزية على العلمانية، وهي مشتقّةٌ من الكلمة اللاتينية سيكولوم (saeculum)، والتي تعني (العصر) أو (الجيل) أو (القرن). أمّا في لاتينية العصور الوسطى، فإنّ الكلمة تعني (العالم) أو (الدنيا) مقابل الكنيسة [المسيري، العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة، ج 1، ص 53]، ولحداثة هذا المصطلح فإنّه لا وجود له في معاجم اللغة العربية القديمة، ولكن أشارت إليه المعاجم الحديثة وهي كما يلي: العَلماني: نسبة إلى العلم بمعنى العالم، وهو خلاف الديني أو الكهنوتي. [مصطفى، المعجم الوسيط، ج 2، ص 624]

عَلماني: منسوب إلى العَلم (وهو العَالم): غير ديني [جماعة من كبار اللغويين العرب، المعجم العربي الأساس، ص 861]، فالعَلماني: من يُعنى بشؤون الدنيا، نسبة إلى العلم بمعنى العالم، وهو خلاف الديني أو الكهنوتي. [موسى، معجم الإرشاد، ص 396]

وجاء في معجم أكسفورد باللغة الإنجليزية: العلمانية: تعني دنيويًّا، أو ماديًّا، أي ليس دينيًّا ولا روحيًّا أو غير معنيٍّ بالشؤون الروحية أو الدينية، أو الحكومة المناقضة للكنيسة. أو الرأي الذي يقول: إنّه لا ينبغي أن يكون الدين أساسًا للأخلاق والتربية. [الشافعي، التيّار العلماني الحديث وموقفه من تفسير القرآن الكريم.. عرض ونقد، ص 44]

وقد اتّفقت معاجم اللغة العربية أنّ العَلمانية بفتح العين لا بكسرها، ونسبتها إلى العالم، وليس إلى العلم، مراعاة للاشتقاق الغربي لأصل الكلمة. [المصدر السابق، ص 44] والذين يقولون بكسر العين ويصرون على إنّ العلمانية نسبة إلى العلم لا إلى العالم، ستكون ترجمتهم للعلمانية خاطئةً، حيث إنّ كلمة (Secularism) في الإنجليزية، أو (Secularit) بالفرنسية، وهي كلمة لا صلة لها بلفظ العلم ومشتقاته على الإطلاق. [الحوالي، العلمانية، ص 21]

فالعلم في الإنجليزية والفرنسية يعبر عنه بكلمة (Science)، والمذهب العلمي يُطلق عليه كلمة ساينتيزم (Scientism)، والنسبة إلى العلم هي (Scientific) أو (Scientifique) في الفرنسية، فزيادة الألف والنون غير قياسية في اللغة العربية، أي في الاسم المنسوب، وإنّما جاءت سماعًا ثمّ كثرت في كلام المتأخّرين كقولهم: "روحاني، رباني، جسماني، نوراني..." [المصدر السابق، ص 21].

وعليه فمصطلح العلمانية من أكثر المصطلحات التي وقع فيها الخلاف بين الباحثين، حيث عرفها بعضهم بأنّها "**فصل الدين عن الدولة**"، أو "**فصل الدين عن السياسة**"، وهذا التعريف لا يمكن من خلاله معرفة العلمانية الغربية، وشقيقتها العربية، فالعلمانية لا تختصر على السياسة فقط، بل تدخل في جميع مناحي الحياة الاقتصادية والاجتماعية وغيرها. [انظر: مصطفى، العلمانية المفهوم والمظاهر والأسباب، ص 35] يرى أحد الباحثين **أنّ** «تعريف العلمانية بأنّها فصل الدين عن السياسة، هو تعريف سطحي ومضلّل، فإنّ جذور العلمانية أعمق من ذلك بكثير، وفصل الدين عن السياسة في الحقيقة يمثّل إحدى الثمار البدائية التي يُمكن اقتطافها من هذه الشجرة ... فإنّ العلمانية تمتدّ إلى جميع أبعاد وشؤون الحياة البشرية، ومنها الحياة السياسية» [سروش، التراث والعلمانية، ص 80]. وعرفها عالم اللاهوت الهولندي كورنليس فان بيرسن (Cornellis van Beersen) بأنّها تعني: «تحرير الإنسان من السيطرة الدينية أوّلًا، ثمّ الميتافيزيقية ثانيًا على عقله ولغته» [العطاس، مداخلات فلسفية في الإسلام والعلمانية، ص 42 و43]. وعرّفها المؤتمر العامّ الدائم للتيّار العلماني في لبنان: «نظرة شاملة للعالم ـ أي للإنسانية جمعاء والكون كلّه ـ تؤكّد استقلالية العالم بكلّ مقوّماته وأبعاده وقيمه، تجاه الدين ومقوّماته وقيمه، والاستقلالية تعني أنّ هناك قيمًا ذاتيةً للعالم غير مستمدّة من الدين وغير خاضعة له» [الطعان، العلمانيون والقرآن الكريم.. تاريخية النص، ص 244]. وهذا التعريف بالنتيجة يؤدّي إلى إقصاء الدين من جميع مناحي الحياة.

ثالثًا: أثر البراغماتية على العلمانية من حيث المبادئ.. عرض ونقد

بعد أن تعرّفنا على معنى الفلسفة البراغماتية والعلمانية، وصلنا إلى مبحث تأثير البراغماتية على العلمانية من حيث المبادئ، وما يهمّنا هنا هو التركيز على عاملين مهمّين كان لهما الدور المهمّ في هذا التأثير على مستوى المبادئ، وهما الأنسنة أو النزعة الإنسانية والنفعية.

أ ـ مبدأ الأنسنة في البراغماتية ودوره في التأثير على العلمانية

لقد أصبحت الأنسنة (Humanism) من أهمّ المفاهيم التي تجذّرت وشاعت في الفكر الغربي، فهي تؤسّس منهجها المعرفي بشكل أساسي على جعل الإنسان المحور في هذا الكون بدل محورية الله، ولم يكن هذا الاتّجاه وليد عصره، بل توجد له أصول تاريخية منذ العصور القديمة في اليونان وهذا واضح في عبارات بعض الفلاسفة القدماء أمثال بروتاغوراس (Protagoras) الذي اعتبر الإنسان مقياس كلّ شيءٍ [انظر: كرم، تاريخ الفلسفة اليونانية، ص 63] إلى أن وصل بنا المطاف إلى العصر الحديث الذي يُعدّ من أبرز العصور التي ظهرت فيها النزعة الإنسانية بشكل واضح وجلي، بعد إقصاء دور الكنيسة من الحياة الاجتماعية، فأصبحت هذه النزعة تمثل الخلفية الفكرية للكثير من المدارس والاتجاهات الفكرية الغربية التي بدأت تركز على محورية الإنسان بشكل واضح وصريح كالوجودية والعلمانية

والليبرالية والبراغماتية والماركسية وغيرها من الاتّجاهات الأخرى التي تأثّرت بهذه النزعة. فقد أسّست هذه الاتّجاهات مشروعها على إصلاح الواقع الإنساني وفق نظرة فلسفية فكرية هدفها الاهتمام بالحياة الدنيا للإنسان من دون الرجوع إلى الدين والوحي، بل التأكيد على العقل الأداتي والعلم التجريبي الذي صار قطب رحى العالم الغربي. وعليه فلا بد لنا قبل تبيين الدور الذي قامت به البراغماتية بالتأثير على العلمانية من حيث النزعة الإنسانية، أن نُبيّن وبشكل مختصر أهمّ معالم الإنسانية في البراغماتية.

أولًا: النزعة الإنسانية في البراغماتية

لقد عملت البراغماتية على طرح القضايا الفلسفية بطريقة تختلف عن الفلسفات الأخرى، سواءً التي سبقتها أو التي عاصرتها، إذ كانت طريقتها تختلف من حيث معالجها وحسمها للقضايا والخلافات والمشاكل الفلسفية بأسلوب عملي تمثيلي مفيد ومختصر، حيث يقول جيوفاني بابيني (Giovanni Papini)[1]: «مثل البراجماتزم بين النظريات المتعددة، كمثل الممشى في نزل يوصل بين جميع حجراته، ففي إحدى الحجرات رجل يكتب كتابًا في الإلحاد، وفي غرفة أخرى رجل آخر يسجد لإلهه طالبًا منه أن يثبّت إيمانه، وفي ثالثة كيماوي يبحث في خصائص بعض الموادّ، بينما في أخرى فيلسوف يبحث في الفلسفة النظرية، وفي أخرى واحد من اللاأدريين يدلّل على استحالة المعرفة أصلًا، وجميع هؤلاء الناس يستعملون ممشى النزل في الخروج من حجراتهم والدخول إليها، وجميعهم من هذه الوجهة يتّبعون فلسفة البراجماتزم، وهم بعيدون كلّ البعد عن النظريات العميقة، فكلٌّ منهم يسير في هذه الطريق لقضاء شؤونه الخاصّة والعامّة» [فام، البراجماتزم أو مذهب الذرائع، ص 142]. فالممشى (الممرّ) يمثّل البراغماتية بوصفها طريقةً في الفلسفة لتشكيل المعيار الذي تستند إليه مختلف المذاهب والنظريات لتقييم مدى صحّتها، فهي تشكّل المعيار الذي تستند إليه مختلف المذاهب والنظريات في تقييم مدى صحّتها، أو هو عبارة عن نقطة تلتقي فيها كلّ المذاهب والاتّجاهات، مع اختلاف وجهات نظرها. وعليه فإنّ البراغماتية تفيد كلّ ما هو عملي ومدى ما تحقّقه الفكرة من آثار عملية، وهذا ما أشار إليه تشارلز برس (Charles Peirce) في مقاله الشهير "كيف نجعل أفكارنا واضحةً" [انظر: المصدر السابق، ص 137]. وقد تبنّى ويليام جيمس (William James) ما ذهب إليه بيرس وجعله منطلق في فلسفته، حيث يقول: «إنّ الطريقة البراغماتية في مثل هذه الحالات هي محاولة تفسير كلّ فكرة بتتبّع اقتفاء أثر نتائجها العملية كلًّا على حدًى» [جيمس، البراجماتية، ص 64]، وقد نظرت البراغماتية إلى الإنسان على أنّه كائنٌ فعّالٌ، يجعل الواقع حسب أهدافه ورغباته ومتطلّباته.

لقد أولى جيمس في منهجه البراغماتية أهمّيّةً فائقةً للإنسان، ويتّضح هذا الأمر في تساؤله الفلسفي

(1) صحفي إيطالي وكاتب قصص قصيرة وشاعر وفيلسوف، وكان من المروجين للبراغماتية في إيطاليا.

الأساسي، وهو كيف يمكن للإنسان أن يختار أفضل الأفكار وأصلحها في عالمٍ تكثر فيه الرؤى والنظريات المختلفة والمنافسة؟ أو ما معيار الصدق الذي ينبغي على الإنسان العمل به لاختيار تلك الأفكار؟ [انظر:ديوي، نمو البراغماتية الأمريكية، في كتاب فلسفة القرن العشرين، ص 239]

لذلك تعدّ نزعته مرتبطةً بنظرية الصدق أو الحقيقة، وإرادة الاعتقاد، أو كما أطلق عليها "حقّ الإنسان في أن يؤمن". وقد اهتمّ جيمس في علاج مشكلة انحراف التربية، وأرجع تخلف التعليم بسبب فلسفة التربية التي تنظر إلى المعلّم والمتعلّم على أنّه مجرّد وسيلة لبلوغ غايات سياسية واجتماعية تحدّدها السياسة التربوية؛ لذلك طلب من المعلّم أن يكون إنسانًا حيويًّا حرًّا في تفكيره، مستقلّ الشخصية والإرادة، متطوّرًا متبصّرًا ومتفتّحًا؛ لأنّه كقائد يلزم أن يكون قدوةً لتأليف جيل صالح وعقول صحيحة وذوات قويّة. [انظر: جيمس، أحاديث للمعلّمين والمتعلّمين في علم النفس، ص 40]

إنّ تفكير جيمس يعتمد على ضرورة احترام الإنسان كغاية في ذاته، وينادي جيمس بالاحترام الصادق للشخصية البشرية الذي هو انبثاق روح غاية في العمق والإنسانية، ويجب ـ اعتبار المعلّم والمتعلّم غايةً في حدّ ذاتها في التربية ـ الإيمان بأهمّيّة القدوة الحسنة في رسالة التربية. ومن ملامح النزعة الإنسانية في فلسفة جيمس من هو الإنسان عنده؟ هل هو إنسان طبيعي مألوف أم إنسان فوق طبيعي خارق على نموذج إنسان نيتشه (Frederick Nietzsche) السوبرمان؟ فإنّ النزعة الإنسانية عند جيمس تؤكّد على وجود صفات مشتركة بين البشرية جمعاء، فهي تنطوي على نظرة عالمية كونية شاملة، كما تؤكّد أنّ وجود أهداف في حياة الإنسان تشكّل منه كائنًا مثاليًّا، ليس بمعنى إفلاته من الواقع، وإنّما هو انغماسٌ إيجابيٌّ فيه وانسجامٌ مع واقع الحياة، بشكل متناغم مع متطلّبات الطبيعة البشرية ودوافعها الفطرية وميولها النفسية والحيوية الداعية للإشباع. [بن صابر، الدين والنزعة الإنسانية عند ويليام جيمس، مجلّة مقاربات فلسفية، ص 354 و355]

وترفض الفلسفة البراغماتية المناقشات النظرية التي لا فائدة عمليةً منها، وترفض التجريد الذي ساد بين المثالية والتجريبية التقليدية، فهي حاولت أن تعطي النموذج الذي يرفع من شأن الإنسان وما يطمح إليه في حياته، فهي تسعى أن تجعل الإنسان هدفًا ومثالًا وركنًا أساسيًّا في فلسفتها [بيري، إنسانية الإنسان، ص 12]؛ وذلك من خلال جعل العقل الإنساني قائمًا بذاته، وله القدرة على إدارة شؤونه من دون الحاجة إلى الدين أو الوحي، فالعقل يستطيع أن يتعرّف على الأمور التي تؤدّي إلى السعادة في هذه الدنيا، وعلى هذا الأساس فالإنسان يستطيع أن يتخلّص من هيمنة الدين وتعاليم الوحي.

واهتمّت البراغماتية كذلك وبشكل خاص بالعقل الأداتي، وهذا واضح فيما ذهب إليه جون ديوي الذي أشار إلى «أنّ الأداتية (instrumentalism) واحدة من التفسيرات المنطقية للبراغماتية، والتي

يلعب فيها العمل (action) أو التطبيق (practice) دورًا أساسيًّا، إلّا أنّها ليست معنيّةً بطبيعة النتائج إنّما بطبيعة المعرفة (Knowing) وأنّ الأداتية هي النظرية السلوكية للتفكير (thinking) والمعرفة وهي تعني حرفيًّا أنّ المعرفة شيء نعمله، وأنّ التحليل في النهاية هو مادّيٌّ وفعّالٌ، وأنّ المعاني ضمن نوعيّتها المنطقية ما هي إلّا وجهات نظرٍ ومواقف وطرائق للتصرّف إزاء الوقائع (facts)، وأنّ التجريب الفعّال هو أمرٌ أساسيٌّ للبرهنة على الصحّة» [مجموعة من الأكاديميين العرب، الفلسفة الغربية المعاصرة، ص 352]. وإنّ المعرفة والتفكير هي سلوك طبيعي إنساني ضمن عملية سلوكية واسعة، يُعتبر الإنسان جزءًا منها، إذ قال: «إنّ موقفنا ببساطة هو أنّه ما دام الإنسان كائنًا تطوّر من بين الكائنات الأخرى، ضمن عملية التطوّر التي يُطلق عليها تسمية "طبيعي" (Natural)؛ لذلك فإنّنا نعامل جميع سلوكياته ومن بينها معارفه المتقدّمة جدًّا، وكأنّها أنشطة ليست خاصّةً به وحده، وليست ملكه وحده قبل كلّ شيء، بل كعمليات للموقف الكامل، للبيئة ـ الكائن (Organism ـ environment) وكذلك أخذ هذا الموقف الكامل وكأنّه الموقف الماثل أمامنا خلال المعارف الذي تظهر فيه المعارف بحدّ ذاتها» [المصدر السابق، ص 356].

وتُعتبر نظرية ديوي (John Dewey) للأداتية نظريةً تجريبيةً علميةً، تكون فيها الأفكار كأدوات توجيهٍ للإجراءات المستخدمة في تجربةٍ معيّنةٍ، ناشئة ومختبرة ضمن مجال التجربة ذاتها، وفي هذا المجال يقول ديوي: «إنّ التجربة تولّد الأفكار والأغراض في حدود إجراءاتها الخاصّة وتختبرها بعملياتها الخاصّة، فإذا بلغنا هذا المبلغ ظفرنا بإمكان تجربة إنسانية في شتّى وجوهها، تكون فيها الأفكار والمعاني مقدّرةً ومتولّدةً ومستخدمةً باستمرار، ولكنّها ستكون متكاملةً مع مجرى التجربة ذاتها لا مجلوبةً من أصل خارجي عن حقيقة متعالية» [ديوي، البحث عن اليقين، ص 164 و165].

وعليه فقد أصبحت المعرفة ـ بوصفها أداةً لتوجيه العمل وإعادة تحديد الخبرة وبنائها ـ عمليةً سلوكيةً طبيعيةً يقوم بها الإنسان باعتباره الساكن البايولوجي للطبيعة، فهو ليس غريبًا عنها، بل هو جزءٌ منها، وإنّ ديوي يشير إلى أنّ التفكير منتمٍ إلى الطبيعة، ولم يعد الإنسان نصفين، جسمًا وعقلًا، إنّه في الطبيعة ومتطبّعٌ بها؛ ولذا يتمّ تفسير الطبيعة بأنّها تعتني بالإنسان، والطبيعة في الإنسان هي الذكاء النامي للطبيعة، ولا يقال إنّ الطبيعة غير عقلانية، إنّها ذكيّةٌ وقابلةٌ للفهم، والطبيعة هي ليست شيئًا ما يراد قبوله والتمتّع به، إنّها شيء ما يراد ضبطه والسيطرة عليه تجريبيًّا، هكذا أصبحت أداتية ديوي في المعرفة والمنطق صادرةً من موقف علمي طبيعي، تجد مبرّرها في الطبيعة حيث نشأت، وفي الطبيعة تطبيقها حيث تختبر لتعتمد. [مجموعة من الأكاديميين العرب، الفلسفة الغربية المعاصرة، ص 358]

ورأى ديوي أنّ «العقل أداة جيّدة بقدر ما يسمح لنا بالتحكم والسيطرة على الطبيعة، ولا تتحقّق

هذه الغاية النفعية، إلّا إذا تضافرت العقول لبلوغ هذا الهدف؛ ولذلك ينبغي استبعاد فكرة اشتمال العقل على مقولات أو مبادئ أوّلية سابقة على التجربة» [بيومي، درجات المعرفة بين الدين والفلسفة والعلم، ص 296]. وعليه فالعقل عند ديوي عبارة عن أداة ووسيلة للسيطرة على الطبيعة؛ من أجل تحقيق غايات نفعية يُشترط فيها أن يستبعد الإنسان من عقله وجود أفكار ومبادئ قبلية.

وهذا الأمر قد سرى إلى العلمانية في تكوين مبادئها المعرفية التي لا تخلو من الطابع البراغماتي الذي أصبحت تعتمد عليه أغلب الأفكار التي بدأت تنتشر في العالم الغربي بشكلٍ خاصٍّ والعالم العربي بشكلٍ عامٍّ، وهذا كلّه حصيلة التوجّه نحو العالم المادّي، متناسين أو متغافلين عن العالم الماورائي الذي له الدور الرئيسي في كيفية صياغة الإنسان ليأخذ بيده نحو السعادة الحقيقية غير الزائفة.

ثانيًا: تأثير النزعة الإنسانية البراغماتية على العلمانية

لقد تبيّن لنا أنّ البراغماتية قد اهتمّت بالإنسان وجعلته من أولى أولوياتها المعرفية؛ لأنّه منبع الحقيقة، وهو الذي يُنشئ واقعه بيده، بما يمتلكه من عقل جبّار يستطيع من خلاله إدارة شؤون حياته من دون تدخّل العامل الماورائي؛ لأنّ الواقع لا يستطيع أن يحصل عليه الإنسان من خارج نفسه حتّى يتقبّله ويبني معرفته عليه، بل الواقع هو الذي تصيغه الأفكار الإنسانية بيدها، وترى ما مدى مطابقتها مع الفكرة التي يعيشها، فالصدق والكذب لا قيمة معرفيةً خارجيةً له، بل الصدق هو الذي يجلب للإنسان المنفعة، والكذب الذي لا يجلب له المنفعة، بغضّ النظر عن قيمة الصدق والكذب الواقعية، فلو كان الكذب يجني منفعة للإنسان فهو أمر جيد ومفيد أيضًا ولو على حساب هدم جميع القيم الواقعية. حيث تحاول الفلسفة البراغماتية أن تخلّص الإنسان من كلّ اعتبار ديني يؤثّر على سلوكه وصياغته بطريقة تجعله إلهًا مصغّرًا بمعنى الكلمة، وكذلك الاهتمام بالعقل الأداتي ودوره في المعرفة الإنسانية، وكلّ هذا جاء نتيجة ردت الفعل التي عاشتها المجتمعات الغربية من تصرفات أرباب الكنيسة، فُعمّم هذا الأمر على كلّ مقدّس وعلى كلّ ما هو دينيٌّ صحيحٌ وواقعيٌّ، وقد سرى هذا الأمر إلى العلمانية، وأثّرت البراغماتية على النزعة الإنسانية فيها، معتبِرةً أنّ الإنسان لا بدّ أن يعيش حياته بمعزلٍ عن الدين معتمدًا في ذلك على قدراته الذاتية، فبدأت العلمانية تعمل على هذا الأمر بشكل جدّي وفاعل، وذلك من خلال قيامها بالخطوة الأولى في عملها وهو فصل الدين عن ساحة الحياة الاجتماعية، وجعله على أقلّ تقدير يختصّ بالفرد بعيدًا عن إدارة الحياة والأخذ بيد المجتمع، وسوف نُشير فيما يأتي إلى تلك التأثيرات التي تركتها البراغماتية على العلمانية من حيث النزعة الإنسانية، ليتّضح لنا مدى تأثير البراغماتية الأمريكية على أفكار المجتمع الغربي، الذي أصبح يؤمن بفاعلية الإنسان وقدرته على سلوك الطريق نحو تحقيق أهدافه المادّية مستندًا على العقل الأداتي، وأبعاد الدين وتأثّراته.

لقد أثّرت البراغماتية على العلمانية من حيث النزعة الإنسانية في جعل الإنسان هو المنبع الحقيقي للمعرفة، وذلك من خلال:

1ـ إقصاء العامل الماورائي وجعل الإنسان هو الذي يقوم بإنشاء واقعية ما بعيدًا عن الدين وتأثيراته، وهذا واضحٌ وجليٌّ في العلمانية حيث ذهب أصحاب هذا الاتجاه إلى فصل الدين عن الدولة، أو فصل الدين عن الحياة الذي يلزم منه الإلحاد بكلّ معنى الكلمة، فمع مجيء عصر النهضة كما يقول ريتشارد تارناس (Richard Tarnas) لم يعد الإنسان عديم الشأن نسبةً إلى الربّ، والكنيسة، والطبيعة. [تارناس، آلام العقل الغربي، ص 268]

وبدل أن يكون الإنسان في خدمة الدين صار على الدين أن يكون في خدمة الإنسان، وأصبحت منزلة الإنسان في العلمانية تتّخذ الأولوية والمكانة، وجعله مركز الكون وقطب رحاه، [انظر: الرماح، الإنسانوية المستحيلة، ص 52] وإنَّ الإنسان ـ وليس الإله ـ هو المصدر المطلق المخصّص بشكلٍ واعٍ للخير والقوّة في الكون، تمجّده الفلسفات الإنسانية هو وقدراته بشكل يشابه إلى حدٍّ كبيرٍ الطريقة التي يمجّد فيها الدينُ الخالقَ، وأصبح البشر يؤول من إلٰه واحد إلى آلهة عدّة، بحيث يكون كلّ شخص إلهًا بحدّ ذاته، وهذه هي الفردانية ومحورية الفرد. [انظر: فيتز، نفسية الإلحاد، ص 36 و37]

وهذا الأمر هو الذي جعل نيتشه فيلسوف العلمانية يعلن موت الإله؛ لكي يتمّ فسح المجال للإنسان؛ لأن الإيمان بالله ﷻ يمنع من أن يثبت الإنسان ذاته، حيث قال: «لو كان هناك إلٰه فكيف كنت أطيق أن لا أكون إلهًا» [زكريا، نيتشه، ص 45]. فالعلمانية تسعى جاهدةً في مراحلها المتقدّمة من أجل نزع القداسة من العالم والإنسان، والنظر إلى كلّ الظواهر نظرةً مادّيةً لا علاقة لها بما وراء الطبيعية، وإذا تمّ ذلك فإنّ العلم الإنساني والطبيعي يُمكن أن يصبح مادّةً استعماليةً، يتمّ توظيفها والتحكّم فيها وترشيدها وتسويتها ... ونزع القداسة يؤدّي إلى ظهور نزعة إمبريالية[1] لدى الإنسان، فهو ينظر للعالم باعتباره مادّةً نافعةً له يمكن توظيفها لحسابه. [انظر: المسيري، موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، ج 1، ص 259]

وهذه هي النظرة البراغماتية بعينها التي تركز على الجانب النفعي ومدى ما تقدّمه الفكرة من فائدة عملية.

2ـ التركيز على استقلالية العقل الإنساني في قدراته، وأنّه الوحيد الذي يُمكن له أن يحقّق السعادة لنفسه من خلال الاهتمام بكلّ ما هو واقعيٌّ وعمليٌّ، من خلال التجربة والخبرات العلمية، واستخدام العقل الأداتي بدل العقل العملي؛ وذلك بسبب إقصاء الدين والوحي من حياة الإنسان، وسنشير فيما

(1) سياسة أو آيديولوجية تهدف لتوسيع نطاق حكم الشعوب والدول الأخرى بغية زيادة فرص الوصول السياسي والاقتصادي وزيادة السلطة والسيطرة، ويكون ذلك غالبًا من خلال استخدام القوة الصارمة، وخاصة القوة العسكرية.

يأتي إلى العقل الأداتي وأهمّيّته في الفكر العلماني.

يُعتبر العقل الأداتي ترجمةً للمصطلح الإنجليزي (instrumental reason) ويقال له أيضًا "العقل الذاتي" أو "التقني" أو "الشكلي"، وهو على علاقة بمجموعة من مصطلحات مثل "العقلانية التكنولوجية" أو "التكنوقراطية" ويقف على الطرف النقيض من "العقل النقدي" أو "الموضوعي". فالعقل الأداتي هو العقل الذي يلتزم، على المستوى الشكلي، بالإجراءات دون هدف أو غاية، أي أنّه العقل الذي يوظف الوسائل في خدمة الغايات دون تساؤل عن مضمون هذه الغايات وما إذا كانت إنسانيةً أو معاديةً للإنسان. وهو، على المستوى الفعلي، العقل الذي يحدد غاياته وأولوياته وحركته انطلاقا من نموذج عملي مادي بهدف السيطرة على الطبيعة والإنسان وحوسلتهما (أي تحويلهما إلى وسيلة)، وفي محاولة تفسير هيمنة العقل الأداتي على المجتمعات الغربية الحديثة، يرى ممثّلو مدرسة فرانكفورت أنّ أحد أهمّ أسباب ظهوره هو آليات التبادل المجرّدة في المجتمع الرأسمالي. [المصدر السابق، ج 1، ص 242]

فتبادل السلع يعني تساوي الأشياء المتبادلة، فما يهمّ في السلعة ليس قيمتها الاستعمالية المتعيّنة وإنّما ثمنها المجرّد. والأيديولوجيا النابعة من هذا التبادل المجرّد هي أيديولوجيا واحدية مادّية، تمحو الفروق وتوحّد الواقع، مساوية بين الظواهر المختلفة، بحيث يصبح الواقع كلّه مادّةً لا سمات لها. ولم تشكّل المجتمعات التي كانت اشتراكيةً أيّ بديل، فهي الأخرى سيطر عليها العقل الأداتي متمثّلًا في التكنوقراطيات الحاكمة. ولا يفسّر ممثّلو مدرسة فرانكفورت أصول العقل الأداتي استنادًا إلى عناصر مادّية أو اقتصادية أو سياسية، وإنّما يرجعونه إلى عنصر ثقافي حضاري، فالعقل الأداتي يعود أوّلًا إلى الأساطير اليونانية القديمة، وخصوصًا أسطورة أوديسيوس؛ باعتبار أنّ الإلياذة والأوديسة هما اللبنة الأسطورية الأساسية للوجدان الغربي. [المصدر السابق، ج 1، ص 243]

وقد ساهم العقل الأداتي الذي كان من نتاج الحداثة الغربية في جعل التواصل بين الناس نادرًا، وجعل الإنسان في العصر الراهن يغرق في بحر الوحدانية والفردانية، وصبّ اهتمامه على كلّ وسيلة تحقّق له النجاح في الحياة، ولو على حساب هدم جميع القيم.

وكذلك اتّضح من خلال ما تمّ عرضه أنّ العقل الأداتي في النظرة العلمانية توجد فيه مجموعة من الخصائص، منها: التركيز على النفعية البراغماتية التي هدفها هو الحصول على أكثر قدر ممكن من المنفعة، وجعل الآثار العملية الأشياء معيار الصدق والكذب للقضايا، وإحلال الوسائل والأدوات محلّ الغايات والأهداف، والتركيز على مبدإ أنّ الغاية تبرّر الوسيلة، والذهاب إلى النسبية والشكّاكية، وغيرها من الأمور. [انظر: عزيزي، الأسس الفكرية للعلمانية.. عرض ونقد، ص 51]

وإنّ الرؤية الأداتية والآلية إلى العقل وحصر دوره في التخطيط والبرمجة ـ بوصفه وسيلةً وأداةً

لتحصيل الأغراض والأهداف المادّية ـ يعدّ نوعًا من اختزال العقل وحطّ شأنه ومنزلته الرفيعة. نعم، لا يمكن إنكار الدور الأداتي للعقل وقدرته الفائقة على التخطيط والمحاسبة والبرمجة لتطوير الحياة الدنيوية في جميع أشكالها وصورها، ولكن لا تقتصر طاقات العقل وقدراته المدهشة في هذا الإطار الضيّق، بل العقل في شقّيه النظري والعملي إذا تربّى على ضوء الوحي الإلهي وهداية الأنبياء وتخلّص من قيود الخرافات والجهالات والضلالات، وتحرر من أغلال الشهوات والشبهات يقدر على أن يوصل الإنسان إلى قمّة الكمال والسعادة الأبدية الحقيقية. [المصدر السابق، ص 52 و53]

فالدين لم يقف بالضدّ من الاهتمام بالإنسان والعمل على تحقيق ما يسعده في الدارين، بل هو الذي نادى من أجل رفع قيمة الإنسان؛ لكونه خليفة الله في أرضه وأشرف مخلوقاته حيث ميّزه الله بالعقل والقدرة على التفكير، ولكن ما نجده الآن في الساحة الفكرية بشكلٍ عامٍّ وفي الغرب بشكلٍ خاصٍّ، ذهبوا إلى أبعد الحدود في هذا الأمر، فعملوا على تحقير العامل الماورائي للإنسان، وشحنه بمبادئ تعمل على قتل روحه المعنوية؛ وذلك من خلال جعل حياته عبارة عن حياة حيوانية مادية نفعية يسعى فيها لإشباع رغباته ولو على حساب دمار الآخرين، وهذا واضحٌ فيما نجده من انتشار الرذيلة والإقدام على قتل النفس، فالتركيز على هذا البعد المادّي وقتل الموجود المطلق والمتعال في فكره سبب تلك الويلات التي جرت وستجري على البشرية.

ب ـ مبدأ النفعية في البراغماتية ودوره في التأثير على العلمانية

النفعية (Utilitarianism) أو مذهب المنفعة هو الذي يقوم الأفعال بمقدار ما تنتجه من منافع [الحنفي، المعجم الشامل لمصطلحات الفلسفة، ص 783]، وأنّ المنفعة تمثّل مبدأ جميع القيم، علميةً كانت أو عمليةً. [صليبا، المعجم الفلسفي، ج 2، ص 499]

وقد تجلّى هذا المذهب في صور مختلفة أبرزها مذهب المنفعة اللاهوتية، ومذهب المنفعة الاقتصادية، ومذهب المنفعة الحدسي أو العقلي، ومذهب المنفعة المثالي، ومذهب المنفعة البراغماتي [الطويل، مذهب المنفعة العامّة في فلسفة الأخلاق، ص 26] وهو محور بحثنا، وسنذكر أهمّ خصائص النفعية في البراغماتية بشكل مختصر.

أولًا: النفعية في البراغماتية

تبدأ النفعية في البراغماتية من القاعدة التي تقول: "إنّ القضايا والأفكار الحقيقية أو الصحيحة هي القضايا التي لها آثار عملية مفيدة ونافعة"، وهذا هو المبدأ البراغماتي الذي اعتمد عليه البراغماتيون، للدلالة على معنى الأفكار الصادقة، ليصلوا من خلالها إلى الحقيقة. وهذا يعني البحث عن الفائدة التي

تحصل من الأشياء، لا حقيقتها، وعليه فالحقيقي هو الذي أحصل من خلاله على الفائدة، وإذا لم أحصل عليها منه، فهذا الشيء ليس بحقيقي حتّى ولو كان يمثل الواقع، فالواقع بالحقيقية هو ما يجلب المنفعة بغضّ النظر هل هو صادق أم كاذب. [راجع: لوبون، حياة الحقائق، ص 139]

ويوجد لهذا الاتّجاه النفعي جذور تاريخية تصل إلى زمن السفسطائيين اليونان، وبالخصوص بروتاغوراس (Protagoras) فالحقيقة عنده لا تثبت بل تُمثّل، وهو لا يخلط بين الحقيقة والفائدة، بل يُميّز بينهما، ولكنّه يذهب إلى إمكان اختيار أفيد الآراء، فيرى وجوب قيام العدل على الفائدة، لا على الحقيقة. [المصدر السابق، ص 139]

وذهبت الفلسفة البراغماتية في الاتجاه الذي سار عليه بروتاغوراس نفسه، فلا يوجد عندهم حقيقةٌ ولا خطأٌ، بل ينصب جل اهتمامهم ينظرون في النتائج العملية، حيث قال ويليام جيمس: «إنّ حقيقة الفكر بنتائجه ... ولا يحتاج إلى تقبل حقائق معينة إلّا عندما يصبح من المفيد صنع ذلك ... والفكر لا يكون حقيقيًّا ما دمنا غير ذوي منفعة حيوية في اعتقادنا أنّه كذلك» [المصدر السابق، ص 140].

وعليه فقد ربط البراغماتيون بين صدق الفكرة وبين النتائج العملية التي تحقّقها في حياة الإنسان العملية، وبالأخصّ معيار النفع الذي يتمّ من خلاله تقييم الفكرة، فإنّ المقياس الحقيقي للبراجماتيزم هو: «أن نضع الفكرة في ميدان العمل، ونطلقها لكي تعمل وتتصرّف فإن أتت بالغاية المطلوبة، أي أتت بالفائدة والنفع فهي حقّ دون نزاع، وإن لم تأتِ بالنفع والفائدة في باطلة دون شك، والنفع والفائدة هنا يُقصد بهما أن هذه الفكرة تؤدّي إلى نفس النتائج المنتظرة التي يؤدي إليها الحقّ» [فام، البراجماتزم أو مذهب الذرائع، ص 268].

فالبراغماتي، يُمكن أن يكون وبحسب مبادئه، مؤمنًا أو ملحدًا، مادّيًّا أو روحًا، فاضلًا أو فاسقًا وفق منفعته الشخصية، ومن البدهي ألّا يُوصى بمثل هذا المبدإ إلّا قليلًا. فالاتّجاه النفعي في البراغماتية يحتوي على آراء مختلفة، ويرى الكثير من أصحاب هذا الاتّجاه أنّه منهاج النيل المعرفة فضلًا عن أنّه اختبار نفعي، وأنّ المبادئ العقلية لا فائدة عمليةً لها، فهو كثير المراعاة للغريزة والوجدان المترادفين بعض الترادف، شأن جميع الفلسفات الوجدانية، قال أحد المدافعين عن هذا الاتّجاه: «إنّ الغريزة أمر لا ريب فيه، إنّها من المعطيات المحكمة المثبتة، والغريزة، مهما كانت مصادرها، هي عنوان ميل النوع ونفعه، فاتّباعها هو الواجب الأول لمن يريد أن يسير مع الطبيعة كما يأمر العقل» [لوبون، حياة الحقائق، ص 140].

وحسب الظاهر أنّ العقل يأمر بالعكس من ذلك، فمن مقتضيات تقدم الحضارة أن يتغلّب الإنسان على اندفاعات الغريزة، وأن لا تهيمن عليه غرائزه. قال ويليام جيمس: «يتحوّل مذهب

الذرائع (البراغماتي) عن التجريد ... إلى الفكر المُعين الكامل، إلى الوقائع، إلى العمل الناجع» [المصدر السابق، ص 142].

ثانيًا: تأثير النفعية البراغماتية على العلمانية

تبيّن في ما سبق أنّ البراغماتية تقوم على مبدإ المنفعة، وأن صدق الفكرة وقبولها يعتمد على ما تحقّقه من منفعة شخصية، ولا يهمّ هل هذه الأفكار سليمة وصحيحة، بل المهمّ هو تحقيق النتائج العملية منها، وسرى هذا الأمر إلى العلمانية، حيث كانت البراغماتية تسعى في نظرتها النفعية أن تسدّ الفراغ الديني في تلبيته لمتطلّبات البشر، وحاولت العلمانية أن تُقصي الدين من جميع مجالات الحياة، فلم يكن أمامها ومن أجل سدّ الفراغ الحاصل من الدين؛ إلّا الاعتماد على النظرة البراغماتية النفعية من أجل الحصول على السعادة عن طرق اللذّة.

حيث تعتبر النفعية نزعةً مادّيّةً حسّيّةً أعطت هذه النزعة للإحساسات الفيزيائية الأسبقية على المفاهيم الأخلاقية، بل والمفاهيم العقلية والإنسانية. فالأخلاق لا علاقة لها بالفضيلة أو الاحتياجات الروحية أو المعنى، وإنّما لها علاقة بالسعادة (اللذّة) والمنفعة، وبالتالي عُرف الخير والشرّ تعريفًا مادّيًّا كمّيًّا، فالخير هو ما يدخل السعادة (اللذّة) على أكبر عدد ممكن من البشر وما يحقّق لهم المنفعة، والشرّ هو عكس ذلك (أي ما يسبّب الألم والضرّر)، والعواطف الإنسانيّة إنّ هي إلّا تعبير عن حركة المادّة، فالرغبة إن هي إلّا التحرّك نحو الشيء المرغوب فيه، والكره إن هو إلّا التحرّك بعيدًا عنه. وليس هناك أسئلة أخلاقية كبرى أو نهائية، فكلّ الأمور مادّيّةٌ نسبيّةٌ متغيّرةٌ. كما أنّ الإنسان ـ مدفوعًا بحب الذات، وببحثه الدائب عن السعادة واللذّة، وبما يتراكم لديه من معرفة حسّيّة مادّية ـ سيختار حتمًا ما يراه نافعًا له وما يدخل السعادة على قلبه، فهو إنسان طبيعي ورشيد، تحكمه القوانين الفسيولوجية الصارمة، وجماع الاختيارات الفردية سيؤدّي حتمًا وبشكلٍ آليٍّ تلقائيٍّ إلى سيادة نفع الأغلبية وسعادتها. فالنظرية الأخلاقية هنا ذرّية كمّية تمامًا مثل رؤية العقل، ومن خلال إصلاح البيئة البرانيّة (الاجتماعية والمادّيّة)، وتطبيق الأخلاقيات المادّيّة الرشيدة وآخر الاكتشافات العلمية ـ يمكن استئصال شأفة الشرّ، بل إصلاح الطبيعة البشرية ذاتها (أوليس الإنسان مجرّد جزء من كلّ طبيعيٍّ مادّيٍّ أكبر؟). ولكلّ هذا، كان فلاسفة العقل والتنوير فلاسفة متفائلين، يؤمنون إيمانًا قاطعًا بمقدرة الإنسان على إصلاح ذاته، وعلى الوصول إلى حلول كاملة ودائمة لكلّ المشكلات التي تواجهه، فالمركزية الإنسانية من خلال استسلامه مركزية الطبيعة، بعيدًا عن العامل الإلهي. [انظر: المسيري، العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة، ج 1، ص 315 و316]

ويتبدّى الصراع بين النموذجين في التناقض بين الخاصّ والعامّ على المستوى الأخلاقي. فماذا لو

أصرّ الإنسان الطبيعي المدفوع بالحبّ الطبيعي للذات على اختيار ما يضرّ الجماعة؟ وماذا لو اختارت الجماعة ما يضرّ بها، وبالآخرين؟ وعادةً ما يحسم الصراع لصالح العنصر المادّي الأقوى؛ ولذا قيل: إنّ الطبيعة هي التي أوجدت الإنسان في المجتمع؛ ولهذا فإنّ المجتمع عليه أن يرغم الفرد على أن ينشد السعادة التي يقررها له المجتمع، ومن ثمّ أصبحت القيمة مسألةً اجتماعيةً، أي أنّ المجتمع هو الذي ينتج القيمة، وليست القيمة هي التي تحكم المجتمع، وقد حرّرت كثير من المجتمعات العلمانية الأخلاق من هيمنة علماء الدين، ولكنّها في ذات الوقت أخضعتها لعلماء النفس والاجتماع والهندسة الاجتماعية والوراثية وشركات الإعلان التليفزيونية ومجلات أخبار النجوم وفضائحهم وصناعة الإباحية واللذّة، وأصبحت مسؤولية الفرد تنحصر في طريقة الأداء، فإن أدّى واجبه على أكمل وجه فهو مواطن خير صالح جيد، حتّى ولو كان هذا الواجب هو إبادة المعوقين والمرضى والعجزة وأعضاء الأقلّيات، وهذا يثير في الواقع قضيّة المسؤولية الأخلاقية للإنسان الفرد، إذ إنّ هذه الرؤية تحوّله إلى كائن سلبي مفعول به، يعكس بيئته، ويتبع القيم الاجتماعية التي أنتجها المجتمع. [المصدر السابق، ج 1، ص 316 و317]

وعادت الأبيقورية مرّةً أخرى، لكي تهدم المطلّقات الأخلاقية الدينية، وهي حقيقة بارزة في العالم العالماني المتمثّل في علاقة الفرد بأسرته وجيرانه وزملائه، والعلاقات السياسية والاقتصادية الدولية حيث تُعدّ المطلقات الأخلاقي مجرّد وهم طوباوي ساذج لا يتجاوز وجوده الاستهلاك الإعلامي البارد؛ فالمنفعة الاقتصادية مثلًا تبيح احتلال البلدان واستنزاف ثرواتها وإبادة أهلها وتخريب بيئتها، فليس بالإمكان أن يحقق المحتل رصيدًا مرضيًا من المنفعة ضمن حدوده الجغرافية؛ ولذلك فلا حرج من ممارسة كُلّ أنواع ما يعرف عند الأخلاقيين بالوحشية؛ لأنّ الغاية المقدّسة النفعية تسوّغ كلّ فعل مهما بدا منكرًا. وقد ينتقل الأمر إلى درجةٍ أسوأ من العناوين الباهتة؛ وذلك عندما تتحوّل هذه العناوين إلى مسوّغات دعائية للفتك بالشعوب واستباحة محُرّمات المخالفين، فتنتصر الدول المعلمنة للقتلة تحت عنوان حقّ التعايش، وتُمكن للأنظمة المجرمة تحت عنوان إعانة الدول الشقيقة، وغير ذلك من اللافتات التي تسوّق الظلم تحت شعار حماية المنافع الاقتصادية للدول الكبرى. [انظر: عامري، العالمانية طاعون العصر، ص 127] وكما تبيّن أنّ الدافع الرئيسي في كلّ فعلٍ هو كسب المنفعة الشخصية ولو على حساب الآخرين، فالشخص العلماني هو الذي يُقدّم مصالحه الشخصية على المصالح العامّة وإن كلّفه ذلك تدمير كلّ القيم الإنسانية والمبادئ الدينية، فالشخص العلماني بالنتيجة هو الذي يبحث عن المنافع الشخصية التي تجرّ النار إلى قرصه، ولو على حساب تعاسة الآخرين.

رابعًا: أثر البراغماتية على العلمانية من حيث اللوازم والآثار.. عرض ونقد

أ ـ الفردية البراغماتية ودورها في بلورة العلمانية

يُقصد بالفردية: هو اهتمام المرء بنفسه، والمحافظة على ذاته، واستقلاله وكيانه. [انظر: نوح، شخصية المسلم بين الفردية والجماعية، ص 12]

ويقوم المذهب الفردي على إبراز هذا الكيان وجعله مقدّسًا، بحث يحرم على المجتمع المساس بحرّيّته، وليس له أن يقول له هذا خطأٌ وهذا صحيحٌ. [انظر: قطب، جاهلية القرن العشرين، ص 130]

لقد اهتمت الفلسفة البراغماتية بالفردية اهتمامًا بالغًا، حيث يُعدّ الفرد هو الملاك الذي من خلاله ينشأ الواقع وقيمته الأخلاقية، فجعلته ميزان الحقّ والباطل؛ وذلك من خلال الأداتية التجريبية التي تبرز أهمّيّة الفرد وتجعله في الاعتبار الأوّل في حساباتها، حيث يُعدّ الفرد هو الذي يحمل الفكر الإبداعي، فيصبح وظيفة عملية من خلال التوجّه إلى العقل الفردي، وهذا بدوره قد أثّر على الفكر العلماني في نظرته إلى الفرد، فقد أكّدت العلمانية على الحرّيّة الفردية وتقديم مصالح الفرد على المصالح العامّة، وسوف نذكر فيما يأتي الفردية في البراغماتية، ومن ثمّ تأثير الفردية البراغماتية على العلمانية من حيث الآثار المترتّبة عليها.

أوّلًا: الفردية في البراغماتية

ترى الفردانية أنّ جميع القيم ذات مصدر إنساني، وأنّ الفرد هو مصدر القيم والمبادئ الخلقية كلّها. وقد نمت الفردية في عصر التنوير الذي ظهرت فيه البراغماتية وغيرها من الفلسفات متأثّرةً بديكارت (René Descartes) [انظر: الكحلاني، الفردانية في الفكر الفلسفي المعاصر، ص 38]، وأصبحت من أهمّ القيم الأساسية في عصر التنوير، وقد ظهرت الفردية بشكل أكثر وضوحًا في الأخلاق الكانطية؛ إذ يرى كانط (Immanuel Kant) أنّ كلّ الأحكام الخلقية تكون مرفوضةً إذا لم تتلاءم مع الإرادات الخاصّة، فالذات الفردية هي صانعة القانون العامّ، لقد وضع كانط الأساس الأخلاقي للفردانية ووضع حلًّا للجدل القائم بين أنصار الفرد وأنصار الجماعة، فحاول أن يؤكّد الذاتية ولكن دون الإضرار بالآخرين [المصدر السابق، ص 39]، إذ قال فكرته المشهورة: «إنّ المبدأ الأعلى للمذهب الأخلاقي هو كما يلي: راع في فعلك أن يكون مطابقًا لمسلّمةٍ تصلح في الوقت نفسه لأن نكوّن قانونًا عامًّا، وكلّ مسلّمةٍ ليست كفؤًا لذلك فهي منافية للأخلاق» [كانط، تأسيس ميتافيزيقا الأخلاق، ص 36]، فهو يرى أن نفعل ما نراه مناسبًا لكل الناس، ولكنّه يؤكّد أن مصدر الفعل الأخلاقي هو الفرد، فأنا أضع لنفسي القانون الأخلاقي وبعد ذلك أرفعه إلى مستوى المطلق وأخضع نفسي له، وخضوعي له هو خضوع لما شرعته لنفسي، فالقانون الأخلاقي لدى كانط ليس مفروضًا من قبل الجماعة ولا من أيّة قوًى أخرى، بل إنّه

نابعٌ من الذات الفردية نفسها، وهنا نلاحظ أنّ كانط قد وضع الأسس الفلسفية للأخلاق الفردانية. فالفرد هو مؤسس الفعل الأخلاقي، ولكنّ الفرد هنا مشرّعٌ لنفسه وللآخرين، وهو مسؤول عن فعله وعن الآخرين أيضًا، فلقد استدلّ كانط على الفردية من خلال قوله إنّ الحرّيّة تكون ملازمة لمبدإ الاستقلال الذاتي وإلى هذا يعود مبدأ القيم العلياء. [الكحلاني، الفردانية في الفكر الفلسفي المعاصر، ص 39]

ويعتبر أنصار مذهب المنفعة من أكثر المعبّرين عن الفردانية في الأخلاقية، كونهم يؤكّدون على المنفعة الذاتية الأخلاقية، ويتّضح هذا عند جيرمي بنتام (Jeremy Bentham)، حيث اشتقّ مذهب المنفعة من نظرية أخلاقية ترجع بوجهٍ خاصٍّ إلى هتشيسون (Hatcheson) الذي كان قد عرضها عام 1720م، حيث يرى هذا المذهب أنّ الخير هو اللذّة، والشرّ هو الألم، ومن هنا فإنّ أفضل حالة يمكن بلوغها هي تلك التي يبلغ فيها تفرّق اللذة على الألم أقصى مداه. وقد أصبحت الفردانية أكثر خطورة في القرن العشرين، فقد وجد هذا التصوّر بشكل أكثر وضوحًا في فكر نيتشه، وقد اتّجهت الأفكار الحديثة المعارضة وظائف القيم وأكّدت نسبيّتها، وترى التصوّرات الحديثة أنّ بإمكان الفرد أن يقرّر الأشياء المقدّسة وغير المقدّسة والخير والشرّ، وقد مثّل هذا الاتّجاه الأخلاقي الفردي معظم تيّارات الفلسفة الوجودية، وخصوصًا لدى سارتر في كتابه "الوجود والعدم". ثمّ جاءت الفلسفة البراغماتية التي تمثّل محور كلامنا في هذا الاتّجاه لتجعل الإنسان هو خالق القيم الأخلاقية. [المصدر السابق، ص 41]

إذ تعدّ القيم الأخلاقية والمعرفة في البراغماتية مصدرها واحد، وهو الخبرة والنشاط الذاتي والتجربة النافعة التي تكون مفيدةً للفرد، إذ يقول أحد روادها إنّ من أبرز الأفكار المتّصلة بنظرة الفلسفة البراغماتية للقيم، هي أنّ مصدرها هو الخبرة والنشاط الذاتي والتجربة، وهذا يعني أنّ القيم عن البراغماتيّين هي نتيجة اجتهاد الإنسان في تتابع الخبرات، وقدرته على استخلاص نتائج التفاعلات المختلفة من هذه الخبرة. [انظر: شبير، دراسة ناقدة للفلسفة البراغماتية، ص 55]

فالقيم في الفلسفة البراغماتية هي أمور إنسانية تنبع من صميم الحياة التي يعيشها الإنسان على هذه الأرض، وليست أخلاقًا متعاليةً تُفرض على الإنسان من جهةٍ عليا، فالإنسان مستقلٌّ في ذاته وهو الذي يقوم بإنشاء واقعه. [المصدر السابق، ص 57]

فمن خلال تفاعل الفرد مع الآخرين يقرّر نوعية القيم التي يجب أن توضع في المرتبة الأولى، وأنّ على الفرد أن يراقب أعماله ويرى مدى مساهمتها في تحقيق القيم التي منحها ثقته واهتمامه، فتصرّف الفرد وتحرّكاته نابعةٌ من شخصيته، وليس من مصدر غريب عن نفسه. [انظر: صالح، فلسفة التربية، ص 80]

وقد أعطت البراغماتية الحرّيّة الكاملة للفرد من أجل تعميق تجربته وفق معيار النفعة، إذ أكّد جيمس على أهمّيّة ترك كلّ إنسانٍ يؤثر الجانب الذي يرتضيه إلى الجانب الذي يحقّق له السعادة في نفسه،

ويحقّق له حياةً راضيةً ويعيش بها بمقتضى ما اقتنع به، وترك المستقبل يحكم على مواقفه بالصواب أو الخطإ. [الجابري، منطق الصراع بين الذرائعية النفعية والعقلانية العربية النقدية، ص 151]

سرى هذا الأمر إلى الدين، وذلك من خلال القول بأنّ الإنسان الفرد هو الذي يعيش التجربة الدينية الخاصّة، إذ جعل جيمس التجربة الدينية هي المنطلق الأساسي والبداية في بحثه عن الدين بأسلوب براغماتي، ولا يعني هنا البحث عن أدلّة وجود الله، بل هو الذهاب مباشرةً إلى الوقائع، ويرى أنّ للتجربة الدينية صور بقدر ما هنالك من أفراد متدينين، ومعناه أنّنا بصدد نزعة تجريبية فردية تتّسم بطابع منهج جيمس في دراسة الفلسفة الدينية. وليست التجارب الدينية عند جيمس مجرّد وثائق نجمعها وندرسها، بل هي أقرب ما تكون إلى كشوف ندرس بها كيفية تجلّي الحقيقة الإلهية لأفراد مختلفين، وعلى الرغم ممّا يكتنف التجربة الدينية من قلق وصراع وأزمات نفسية، فمن المؤكّد أنّ شعور النفس بوجود قوّةٍ عاليةٍ تستطيع أن تجد لديها الغوث والعون من شأنه أن يأخذ بيدها دائمًا في هذه الحياة، وليس هذا الشعور وهمًا خادعًا لا أساس له، بل إنّ التجربة لتدلّنا على أنّ في النفس من التيّارات الروحية الخفيّة ما تعجز عن تفسيره النزعات الحسّيّة السطحية. [انظر: إبراهيم، دراسات في الفلسفة المعاصرة، ص 49 و50]

فرؤية جيمس المتعلّقة بالتجربة الدينية فيها نوعٌ من الغلوّ في التجربة الفردية، وتغافلٌ عن تأثير التجربة الدينية الجمعية في الإنسان الفرد المنتمي إلى تلك الجماعة الدينية، فالواقع يخبرنا عن تأثير الطقس العبادي الجمعي ـ مثل الصلاة أو الحجّ وغيرها ـ في نفسية الفرد المؤمن. كذلك اعتباره الدين شخصيًّا يختلف من شخص إلى آخر؛ لكي يلغي وجود الدين القائم على المعتقدات الجمعية، وعليه فالفلسفة البراغماتية اهتمّت بمسألة التجربة الدينية؛ وذلك من أجل قياس حقيقة تلك التجربة وصدقها على وفق النظرة البراغماتية النفعية التي تهتمّ بما يقدّمه الدين من نتائج عملية. [انظر: الحيدري، فلسفة الدين في الفكر الغربي، ص 237]

ثانيًا: تأثير الفردية البراغماتية في بلورة العلمانية

لقد تأثّرت العلمانية في الفردية البراغماتية؛ إذ جعلت همّ الفرد هو الحصول على أكبر قدرٍ من المنفعة الشخصية، التي تُنمّي فيه الأنانية المفرطة على حساب القيم الواقعية التي لها تأثير في سلوك الإنسان، فتحوّل الأمر من جعل القيم الأخلاقية الواقعية منطلقًا من أجل توفير السعادة للآخرين عن طريق الإيثار إلى عملية كسب المنافع الشخصية الأنانية. إذ بدأ في عصر التنوير التركيز على النزعة الفردية وأصالة الفرد في مقابل أصالة المجتمع، بعد ردّة الفعل التي حصلت بين الكنيسة والمجتمع الغربي، وفيها خرج العلم والأخلاق والسياسة عن هيمنة الكنيسة، فلم يستقلّ في هذه المرحلة العلم عن الدين فقط،

بل حتّى علم الأخلاق استقلّ أيضًا، فقد حاول المفكّرون الغربيّون في هذه المرحلة إيجاد جملة من القواعد الأخلاقية التي لا تستند على الدين، من خلال التركيز على الإرادة الفردية، وأصبحت الأخلاق تبتني على نظرة علمانية دنيوية بعيدة عن الدين وتأثيراته على واقع الحياة في تلك المجتمعات، فتمّ تفسير الأخلاق في العلمانية على أساس الاتّجاه النفعي القائم على أصل المنفعة الفردية بمعزل عن الدين والقيم الدينية، فجعلوا الأخلاق نسبيةً حسب كلّ فرد وما تجلب له من مصلحة ولو على حساب تعاسة الآخرين.

وقد أصبح محور الأخلاق في العلمانية هو عامل المنفعة والنظرة البراغماتية التي لا تهتمّ بالقيمة الأخلاقية بما هي قيمة، بل تنظر إليها على أساس ما تقدّمه من منفعة عملية ولو كانت بعيدةً عن الواقع، فهذا فيلسوف العلمانية نيتشه الذي أعلن موت الإله يرى أنّ الإنسان جزء لا يتجزّأ من الطبيعة المادّيّة، وليس له بعد آخر غير المادّة، فالإنسان مكتفٍ بذاته ولا يحتاج إلى أيّ قيمٍ عليا تأخذ بيده، وليس له عقلٌ مسبقٌ وروحٌ ثابتةٌ مفارقةٌ لجسده الفاني، فلا يوجد عند نيتشه قيمٌ مطلقةٌ أو معايير ثابتةٌ لا تتغيّر ورفض القول بإرجاعها إلى الله، وكذلك أنكر إرجاع القيم المطلقة إلى العقل، فأدّى بالتالي إلى إنكار وجود الخير في ذاته أو الحقّ في ذاته، فالأخلاق عبارة عن معايير صنعها الإنسان لهدف معين، وفي وسعه أن يبدلها إن شاء وأن يضع لنفسه هدفًا آخر، وعليه فالأخلاق عند نيتشه مرتبطة بالنتيجة وبالفعل، أي أنّها هي الأخرى حلقة في السلسلة المتلاحقة، وهذه هي النظرة البراغماتية للأخلاق والقيم الأخلاقية. [انظر: عويضة، فريدريك نيتشه نبيّ فلسفة القوّة، ص 89 و90]

فهو يدعو لخلق القيم التي تحافظ على النوع الإنساني، فهي قيم ذرائعية، ولكنّها ذات سموّ إنساني، وهذا أيضًا ما تؤكّد عليه الفلسفة البراغماتية؛ إذ ليس هناك حقيقة قائمة خارج التاريخ الإنساني، بل إنّها مرتبطة بالإنسان ومصيره، وبالتالي فإنّه هو الذي يخلقها للحفاظ على وجوده. فالصواب في فلسفة نيتشه هو ما يحافظ على حياة الفرد والفرد المتميّز بالذات؛ لأنّه كنز الحياة وينبوعها. [الكحلاني، الفردانية في الفكر الفلسفي المعاصر، ص 85]

لم تذهب العلمانية بعيدًا عمّا ذهبت إليه البراغماتية في التجربة الدينية، حيث ركّزت العلمانية على مسألة فصل الدين عن الدولة، بل عن الحياة، وحوّلت مسألة الدين على أنّها علاقة فردية باطنية روحية يعيشها الشخص صاحب تلك التجربة مع الله تعالى، وبما أنّ الدين ليس له مورد نفعي براغماتي فلا قيمة عمليةً له، فينبغي أقصاؤه عن ساحة الدولة وحصره بالفرد، هذا على مستوى العلمانية الجزئية، وأمّا على مستوى العلمانية الشاملة، فالدين ينبغي أقصاؤه أيضًا عن ساحة الحياة، والعمل على قتله حتى على المستوى الفردي، والذهاب إلى الإلحاد والربوبية بكلّ معانيها.

وتشكّل التجربة العرفانيّة عند برايتمان تجربةً دينيّةً، وتتمثّل في وعي الله ﷻ بدون واسطة

وبمعزل عن العقل وإرادة الفرد أو المجتمع، بل هي وعيٌ مباشرٌ بالله تعالى. [انظر: الحائري، الفتاوى المنتخبة، ص 24]

وقد ركّز شلايرماخر (Friedrich Schleiermacher) وجيمس على الجانب الشخصي والفردي للدين، وهذا ما ذهبت إليه العلمانية في نظرتها للدين، فقد جعلت الدين أمرًا شخصيًّا وفرديًّا مرتبطًا بالوجدان والشعور الباطني، وليس له أيّ دورٍ في إدارة الحياة المدنية. [المصدر السابق، ص 24]

كان الهدف من حصر الدين في التجربة الشخصية التي يعيشها الفرد هو إقصاء العامل الماورائي الذي له الدور الفعّال في حركة المجتمع، وتأسيس نظامٍ يقوم على توفير السعادة في الدارين، فقد حاول العلمانيون أن يقصوا الدين من ساحة الحياة وحصره بالعلاقة الفردية، وذلك من أجل تأسيس نظام قائم على فصل الدين عن الدولة، ولكنّ هذا الأمر لا يتمّ إلّا من خلال ضرب الأسس التي يستند عليها الدين، ومن بينها النبوّة والوحي، فقالوا ببشرية الوحي وإنّه أمرًا غير مقدّسٍ، حيث يؤكّد ويصرّح بعض الحداثيّين بأنّ الوحي عبارة عن تجربة دينية عرفانية عاشها النبيّ وهي نابعةٌ من ذاته، ولا يلتقّى النبيّ شيئًا من خارج نفسه؛ لذلك يصرّح بعضهم بأنّ «النبوّة هي نوعٌ من التجربة العرفانية والكشف» [سروش، بسط التجربة النبوية، ص 10]. وعليه فلا يمكن أن نجعل هذه التجربة الدينية التي عاشها النبيّ سلوكًا في حياتنا، ونجعلها دستورًا نسير عليه؛ لأنّ الذي عاشه النبي حاله حال التجارب الأخرى التي يمرّ بها العرفاء من خلال الكشوف ولو بشكل أقوى، مع أنّ هناك فرقًا واسعًا بين التجارب العرفانية والتجربة النبوية، فالتجارب العرفانية قابلةٌ للخطإ والصواب، وأمّا ما يتلقّاه النبي من الوحي فهو غير قابل للصواب والخطإ؛ لأنّه معصوم من الخطإ والعصيان، كما ثبت في محلّه.

ونكتفي هنا إلى ما طرحناه في مسألة التجربة الدينية، تاركين البحث فيها إلى دراسات أعمق وأدقّ، ولكنّ ما أردنا أن نوضحه في هذا الباب أنّ حصر الدين على أنّه حالةٌ خاصّةٌ يعيشها الفرد أمرٌ غير صحيحٍ؛ لأنّ الدين عبارةٌ عن سلوك حياةٍ جاء من أجل حلّ مشكلة المعرفة عند جميع الناس، وفق آليةٍ تحقّق لهم الساعدة في الدارين عن طريق الأنبياء والرسل.

ب- النسبية البراغماتية ودورها في بلورة العلمانية

النسبية عبارة عن منهج فلسفي يرى أنّ جميع وجهات النظر المتبادلة بين الآخرين صحيحة؛ لأنّ الحقيقية تدور مدار الفرد وتُنسب إليه، فهو الذي يُحدّد واقعها حسب ما يراه، وهذا يؤدّي إلى أن يكون الدين والأخلاق والكثير من مجالات الحياة الأخرى حقائق نسبية بالنسبة للفرد، وعليه فلا يُمكن أن يدّعي أي شخص ويقول إنّ فكري أو طريقتي هي الصحيحة دون غيرها؛ لأنّ ما أراه حقًّا قد تراه باطلًا والعكس كذلك، ولكنّي لا أحكم على باطلك وأنت لا تتبنّى الحقّ الذي معي، فالحقيقة

نسبية ولا يُمكن الجزم بها وأطلاقها، بمعنًى آخر أنّه لا وجود للحقائق الموضوعية، فما تراه أنت حقيقيًّا فهو بالنسبة لك وحدك حقيقي، وما أراه حقيقيًّا فهو بالنسبة لي حقيقي؛ فلا أحكم عليك بالخطإ ولا تحكم عليّ بالخطإ فنحن متساوون؛ لأنّه لا يُمكن لأيّ شخص أن يدّعي أنّه صاحب الحقّ المطلق، وقد انتشر هذا المنهج في الفكر الغربي القديم والمعاصر بشكل ملحوظ، حيث تبنّى الفكر الفلسفي الغربي النسبية ورفض الحقائق المطلقة، ولو دقّننا بالأمر لوجدنا أنّ تبنّي النزعة الإنسانية ومحورية الإنسان، والتي تولّد منها الاهتمام بالفرد بما هو فرد، سينتج بالنتيجة وبشكل طبيعي النسبية في كلّ شيء حتّى في عدم التصديق بوجود إله لهذا الكون؛ لأنّ النسبية تدعو إلى التحرّر من جميع الحقائق إلّا حقيقة النسبية، وسوف نشير فيما يأتي إلى ما له دور في مورد بحثنا، وهي النسبية المعرفية والنسبية الأخلاقية التي ركّزت عليهما البراغماتية والعلمانية على حدٍّ سواءٍ.

أـ النسبية المعرفية: المقصود من نسبية المعرفة أنّ المعرفة الإنسانية نسبة بين الذات العارفة والموضوع المعروف، وأنّ العقل الإنساني لا يحيط بكلّ شيء، واذا أحاط ببعض جوانب الأشياء وضعها في قوالبه الخاصّة، فنسبية المعرفة ترجع إلى القول: إنّ العقل لا يستطيع أن يعرف كلّ شيء، فإذا عرف بعض الأشياء لم يستطع أن يحيط بها إحاطةً تامّةً. وما من فكرةٍ في العقل إلّا كان إدراكها تابعًا لمعارضتها بفكرة سابقة مختلفة عنها أو شبيهة بها؛ لذلك كان من المحال إدراك المطلق؛ لأنّه لا يتصوّر وجود شيء خارجه حتّى يعارض به. وإذا كان العقل ـ كما يقول كانط ـ صائغًا، يكيّف معطيات التجربة ويصوغها وفق قوالبه الخاصّة، فلا تعجب لاختلاف صور المعرفة باختلاف قوالب الصائغ. [صليبا، المعجم الفلسفي، ج 2، ص 466]

ب ـ النسبية الأخلاقية: هو اتّجاه يذهب إلى أنّ فكرة الخير والشرّ تتغيّر بتغيّر الزمان والمكان، من غير أن يكون هذا التغيير مصحوبًا بتقدّم معيّن [المصدر السابق، ج 2، ص 466]، وعليه فلا توجد أخلاق تتّصف بالإطلاق؛ لأنّه لا يوجد خطأٌ أو صوابٌ فيها، فلا قيمة إذن للأخلاق، وسنعرض فيما يأتي النسبية في البراغماتية سواءٌ على المستوى المعرفي أو الأخلاقي، وبعدها نُشير إلى تأثير النسبية البراغماتية على العلمانية.

أوّلًا: النسبية في البراغماتية

لقد اهتمّ روّاد الفلسفة البراغماتية بهذا الاتّجاه؛ لأنّه ينسجم مع البناء المعرفي الذي وصلوا إليه من خلال تبنّيهم عامل المنفعة المنتظر من كلّ عمل، فمن حيث المعرفة ذهب بيرس إلى إنكار المعرفة الحدسية التي تعتمد من حيث الصدق على ذاتها، وتكون أساسًا لغيرها، حيث ينكر بيرس أن يكون لنا معرفة مباشرة بأنفسنا كأفراد مستقلّة، أي أنّنا عاجزون عن الشعور شعورًا مباشرًا بذواتنا

وحالاتنا العقلية المختلفة، فهو لا ينكر أنّنا نعرف هذه الوقائع عن أنفسنا، ولكنّه ينكر أنّ معرفتنا لها حدسية. [انظر: زيدان، البراجماتيزم عند وليم جيمس، ص 67]

فإنكار بيرس للمعرفة الاستدلالية إشارةٌ إلى أنّ القضايا الفطرية قضايا لا معنى لها، وأنّ القضايا البسيطة التي يعتقد بصحّتها رجل الشارع هي القضايا الصادقة، وتصلح هذه القصايا أن تكون أساسًا للمعرفة الإنسانية، وهذا الإنكار للحدس يمهّد السبيل لتقرير أنّ العلم الصحيح ما كان مؤسّسًا على ما نعتقده؛ لأنّ الفكرة الصحيحة ليست الفكرة المجرّدة المتعالية على حياة الناس ووقائعهم، وإنّما هي الفكرة العامّة التي يراها كلّ إنسان ويستطيع أن يحقّقها كلّ فرد، ومن ثمّ على العلم أن يجد لها تحليلًا وتدعيمًا عقليًّا. [المصدر السابق، ص 78]

وذهب جيمس إلى أنّ المعرفة نظرية تجريبية، حيث يعالج أيّ مشكلة معرفية وفق التجربة الجزئية المحسوسة، حيث قال: «لذلك ارتضيت فيما يتعلّق بنظرية المعرفة، المذهب التجريبي، وآمنت بنظرية عملية، وهي أنّه يجب علينا أن نسير في تجاربنا ونمضي في تفكيرنا حول هذه التجارب؛ لأنّ أفكارنا وآراءنا لا تتطوّر وتتدرّج نحو الكمال إلّا بهذا السبيل، ولكن أن تصر على أنّ نظريةً من تلك النظريات ـ أيّ نظريةٍ كانت ـ حقٌّ، لا يقبل الإبطال أو الشكّ، فذلك على ما أعتقد خطأٌ عظيمٌ ... فليس هناك من اليقين الذي لا يعتريه إلّا حقيقة واحدة، وهي تلك الحقيقة التي لم تقدّر فلسفة الشكّ نفسها أن تهدمها، ألا وهي وجود ظاهرة الشعور، وتلك هي النقطة الجرداء التي تبدأ منها المعرفة» [انظر: جيمس، العقل والدين، ص 16 و17]. وعليه فالمعرفة عند جيمس فردية وتجريبية، وهذا بدوره يؤدّي إلى النسبية.

وقال جون ديوي: «إنّ المعرفة بمعناها الدقيق كشيءٍ نمتلكه إنّما تتكوّن من مواردنا الفكرية، أي من كلّ العادات التي تجعل فعلنا ذكيًّا، ولا يدخل في تكوينها إلّا ما انتظم في استعداداتنا، بحيث يتيح لنا تكييف البيئة وفقًا لحاجتنا. وتكييف أهدافنا ورغباتنا وفقًا للموقف الذي نعيش فيه، فالمعرفة ليست مجرّد شيءٍ نعيشه الآن، بل تتكوّن من الاستعدادات التي نستخدمها عمدًا أو عن وعيٍ لفهم ما يحدث لنا الآن، والمعرفة من حيث هي فعلٌ أو عملٌ هي إبراز بعض استعداداتنا إلى نطاق الوعي بقصد تبديد حيرةٍ ما، عن طريق فهم الصلة بيننا وبين العالم الذي نعيش فيه» [ديوي، الديمقراطية والتربية، ص 305]. والمعرفة عند ديوي أداتية نتّخذها لتنظيم الأشياء تنظيمًا جديدًا حسب ما نريد، وليست الحقائق ثابتةً موجودةً وجودًا سابقًا، ولكنّنا نكسب المعرفة كلّما تدرّجنا في البحث وسرنا في طريقه. [ديوي، البحث عن اليقين، ص 17]

بعد أن تمّ عرض نظرية المعرفة في الفلسفة البراغماتية من قبل أهمّ روادها، وتبيّن لنا أنّ ما ذهبوا إليه في المعرفة يقوم على الفردية والنسبية في المعارف، نأتي الآن لذكر البعد الآخر وهي الأخلاق، حيث

رفض أتباع هذه الفلسفة كون القيم ثابتةً؛ لأنّ الإنسان هو الذي يخلق قيمه بنفسه. والأخلاق عند جيمس تتكوّن من ثلاثة عناصر رئيسية، وهي: الإلزام الخلقي، ومذهب التفاؤل الخلقي، وحرّيّة الإرادة عند الإنسان، فالأخلاق في مفهوم جيمس هي أخلاق كفاحٍ ونضالٍ، وطبيعة الحياة عملٌ متّصلٌ وكفاحٌ مستمرٌّ، وتجدّدٌ لا ينقطع وتطوّرٌ لا يحدّه حدٌّ، وعلى ذلك فلا يمكن أن تكون هناك أخلاق مكتملة كما لا يمكن أن تكتمل الأخلاق إلّا حين تنتهي آخر تجربة لآخر إنسان. فهو يذهب إلى أنّ الأحكام الأخلاقية تجريبية تتطوّر وتتغيّر طبقًا لتغيّر الرأي العامّ الذي يعدّ في نظره معيار الصواب بالنسبة للأحكام والقواعد الأخلاقية، فلا توجد أحكام أخلاقية مطلقة بحال من الأحوال. [انظر: عثمان، الفكر المادّي الحديث وموقف الإسلام منه، ص 385]

فالفلسفة البراغماتية ترى أنّ القيم في المجتمع ولدى الأفراد أيضًا قيم نسبية تؤثّر في أعمالهم وسلوكهم، وفي الاحتمالات التي يضعونها لحلّ المشكلات التي تواجههم، وهي لا تؤمن بوجود قوانين أخلاقية مطلقة، بل يجب أن تبقى خاضعةً للتغيّر، فليست هناك قوانين أخلاقية أو قيمية يفرضها واقع معيّن، فالأحكام التي تصدرها على شيء ما تعتمد على نتيجة هذا الشيء. [انظر: عبد الرحمن، فلسفة التربية، ص 80]

ثانيًا: تأثير النسبية البراغماتية في بلورة العلمانية

تعدّ النسبية من المبادئ المعرفية التي تستند عليها العلمانية في بناء صرحها المعرفي، فهي لم تذهب بعيدًا عن النظرة البراغماتية النسبية في المعارف والأخلاق ضمن نظرةٍ نفعيةٍ تقصي الواقعية عن جميع مجالات الحياة، حيث ينطلق المبدأ العلماني من أصل مصارمة ما هو متجاوز للعالم ليؤصّل في الحين نفسه لعقيدة نسبية المعرفة والقيمة، ومن خلالها تتحوّل حقيقة الأشياء من الفكرة إلى المفكّر، فتلاشت بذلك الماهية الذاتية ليحل محلّها الذوق الفردي أو المدرسي، لتكون الحقيقية الوحيدة في الوجود هي أنّه لا حقيقية، فالحقيقة كما يقول هايدون وايت (Hayden White) أستاذ الأدب المقارن في جامعة كاليفورنيا: إنّها تُصنع ولا توجد، وهذه نظرة براغماتية واضحة، وجعلت هذه النسبية الإنسان الأوربّي يُهيمن عليه الشكّ؛ بسبب فقدان النظرية الثابتة التي ينطلق منها ويؤسّس عليها أفكاره، حيث قال جورج بارنا (George Barna): «إنّ عالم ما بعد الحداثة هو كونٌ بلا مركز. ولا توجد سلطة نهائية فوق الذات؛ ولذلك تحكم الفوضوية الأخلاقية اليوم» [انظر: عامري، العالمانية طاعون العصر، ص 138 و139].

وقد أدّت النسبية على المستوى الديني إلى إحلال الأرثوبركسي (Orthopraxy)[1] محلّ

(1) لغةً: العمل الصحيح، واصطلاحًا: السلوك ضمن شعيرة مقرّرة.

الأرثودكسي (Orthodoxy)؛[1] أي: أنّ الإنسان المتحرّك ضمن الحدود الدنيوية قد أضحى اليوم يتصرّف بمقتضى الحاجة إلى الممارسة وضمن العرف القيميّ لمكانه وزمانه، ولا ينطلق من تصوير أوّلي عقدي مطلق، وهذا نوع من النفعية الدينية الحادثة التي تؤول إلى تقليص المطلق الديني أو إلغائه لحساب الحافز الظرفي المتحوّل، وقد هيمنت النسبية على العلمانية حتى أصبحت جزءًا منها، فقد عرف الكاتب العلماني مراد وهبة العلمانية بأنّها: «**التفكير في النسبي بما هو نسبي وليس بما هو مطلق**»؛ أي: «**بمعنى تناول الظواهر الإنسانية والتي هي نسبية بالضرورة بمنظور نسبي وليس بمنظور مطلق**» [وهبة، الأصولية والعلمانية، ص 58].

كذلك تؤكّد العلمانية أنّ الأخلاق نسبية، وأنها متغيّرة حسب الزمان والمكان، حتّى تتخلّص من كلّ صبغة دينية وعرقية، وهي بذلك تنفي أيّ مبدإ أخلاقي إلّا مبدأ المنفعة، فكلّ الأمور نسبية من العبارات الأساسية في الخطاب العلماني، سواءٌ كان في العالم الغربي أو الشرقي، إذ لا يُدرك الكثيرون مضامين هذه العبارة على المستوى المعرفي والأخلاقي، فهي تعني عدم وجود مطلقات ثابتة أو متجاوزة للعالم الطبيعي المادّي (فهي الحياة الدنيا ليس إلّا)، ومن ثمّ لا يمكن الوصول إلى أيّ يقين معرفي، فالحقيقة نسبية، ومع غياب الحقيقة لا يمكن أن يكون هناك حقّ، ولا يمكن التوصّل إلى أيّة قيمٍ أخلاقيةٍ فكلّ القيم الأخلاقية نسبية، وهذا يعني في واقع الأمر غياب المعيارية واختفاء أيّة إنسانية مشتركة، ومن ثمّ سقوط مفهوم الإنسانية نفسه، إذ كيف يمكن أن يكون هناك مفهوم للإنسان دون أن يكون هناك معيار معرفي أو أخلاقي؟ وكلّ هذا يعني نزع القداسة عن العالم بأسره وتساوى الإنسان بكلّ الكائنات، ومن ثمّ لا تكون له أيّة مكانة خاصّة في الكون، أي أنّ الإنسان يصبح شيئًا ضمن الأشياء، تسري عليه القوانين الطبيعية المادّية، وتهيمن عليه الواحدية المادّية. [انظر: المسيري، دراسات معرفية في الحداثة الغربية، ص 64 و65]

وقد توسّع نطاق النسبية المعرفية والأخلاقية في العصر الحاضر حتّى أصبح من المستحيل الإيمان بأيّة قيم، وهذا بدوره يؤدّي إلى ضياع الأسرة والانحلال الجنسي وسيطرة عامل اللذّة المادّية على المجتمعات التي أدّت إلى هدم كلّ القيم الأخلاقية، حيث أصبحت اللذّة إحدى الآليات التي يستخدمها المجتمع العلماني الحديث في استيعاب الجماهير في عمليات الضبط الاجتماعي بعد أن كان يبذل جهودًا لمحاصرتها وإعلائها. [المصدر السابق، ص 119]

هذا كلّه بسبب عامل الحرّيّة المفرطة، إذ يذهب العلمانيون إلى أنّ وجود الحقيقة المطلقة يعمل على كبت المعرفة الحرّة، وبسبب هذه الحرّيّة المعرفية سيكون كلّ فرد على حق، ونفي الحقيقة المطلقة حيث

(1) لغةً: الطريق المستقيم، واصطلاحًا: العقيدة السليمة مقابل الهرطقة.

يكون ميزان الحقّ غير متساوٍ بين الأفراد، فما هو حقٌّ عندي يكون ليس بحقٍّ عند الآخر.

وعليه فقولنا إنّ الحقيقية نسبية وإنّ الأخلاق نسبية يعدّ من المقولات التي تناقض نفسها، فمن تبنّى هذا الرأي قال كلّ حقيقة نسبية أو كلّ أخلاق نسبية، وهما عبارتان مطلقتان فما فرضته نسبي أصبح مطلقًا، وهذا يؤدي إلى بطلان القول بالنسبية على المستوى المعرفي أو الأخلاقي، وكذلك القول بالحقيقة النسبية خلاف الواقع، حيث يوجد الكثير من الأمور المطلقة التي لا نستطيع أن نجعلها نسبيةً وغير ثابتة مثل الإنسان مفكّر، والقمر منير والماء يروي العطشان، وغيرها من الحقائق الواقعية التي لا تقبل التبديل والتغيير.

الخاتمة

لا بدّ أن نذكر هنا إنّ ما توصلنا إليه من تأثير البراغماتية على العلمانية من حيث المبادئ والآثار، كان له الدور الفاعل في تعميق الفكر العلماني وتوسع جذوره الفلسفية من حيث عامل المنفعة والنسبية والفردية وغيرها، ولا يخفى كذلك أنّ العلمانية كان لها أيضًا الدور الفاعل في التأثير على الكثير من الفلاسفة الغربيين في نظرتهم إلى الدين والدولة، وهذا أيضًا أثّر على الفلسفة البراغماتية في نظرتها السياسية المعتمدة على فصل الدين عن الدولة، وعن ساحة الحياة أيضًا، وعليه فإنّ أغلب هذه الفلسفات أو الأفكار جاءت نتيجةً لردّة الفعل التي حصلت ضدّ الكنيسة وأرباب الكنيسة، ممّا أدّى إلى ظهور نزعاتٍ فلسفيةٍ تحمل شعار العلم والعلمنة، بعيدًا عن الدين وما يقدّمه من أجل بناء الفرد والمجتمع لتحقيق السعادة في الدارين.

قائمة المصادر

إبراهيم، زكريا، دراسات في الفلسفة المعاصرة، مكتبة مصر، القاهرة، ط 1، 1968 م.

الجابري، علي حسين حسن، منطق الصراع بين الذرائعية النفعية والعقلانية العربية النقدية، مركز دراسات الوحدة العربية، لبنان، 1995 م.

الحائري، كاظم، الفتاوى المنتخبة، دار البشير، ط 4، 1435 هـ

الحنفي، عبد المنعم، المعجم الشامل لمصطلحات الفلسفة، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط 3، 1420 هـ

الحوالي، سفر بن عبد الرحمن، العلمانية، دار الهجرة.

الحيدري، إحسان علي، فلسفة الدين في الفكر الغربي، دار الرافدين للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط 1، 1434 هـ

الرماح، إبراهيم عبد الله، الإنسانوية المستحيلة، مركز دلائل، الرياض، ط 2، 1439 هـ

الشافعي، منى محمد بهي الدين، التيار العلماني الحديث وموقفه من تفسير القرآن الكريم.. عرض ونقد، دار اليسر، القاهرة، ط 1، 1429 هـ

الطعان، أحمد إدريس، العلمانيون والقرآن الكريم.. تاريخية النص، دار ابن حزم للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية، ط 1، 1428 هـ

الطويل، توفيق، مذهب المنفعة العامة في فلسفة الأخلاق، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط 1، 1953 م.

العطاس، سيد محمد نقيب، مداخلات فلسفية في الإسلام والعلمانية، ترجمة: محمد طاهر الميساوي، دار النفائس، الأردن، ط 1، 1420 هـ

الكحلاني، حسن محمد، الفردانية في الفكر الفلسفي المعاصر، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط 1، 2004 م.

الكليني، محمد بن يعقوب، أصول الكافي، دار الأسوة للطباعة والنشر، طهران، ط 7، 1434 هـ

المسيري، عبد الوهاب، العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة، دار الشروق، القاهرة، ط 1، 1423 هـ

المسيري، عبد الوهاب، دراسات معرفية في الحداثة الغربية، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، ط 1، 1427 ه.

المسيري، عبد الوهاب، موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، دار الشروق، القاهرة، ط 1، 1999 م.

النشار، مصطفى، مدخل جديد إلى الفلسفة، دار قباء للطباعة، القاهرة، ط 4، 1998 م.

بن صابر، محمد، الدين والنزعة الإنسانية عند ويليام جيمس، مجلة مقاربات فلسفية، المجلد 8، العدد 1، 2021 م.

بيري، رالف بارتون، إنسانية الإنسان، ترجمة: سلمى الخضراء، منشورات مكتبة المعارف، بيروت، 1989 م.

بيومي، محمد مصطفى أحمد، درجات المعرفة بين الدين والفلسفة والعلم، دار الفكر الجامعي، الإسكندرية، ط 1، 2010 م.

تارناس، ريتشارد، آلام العقل الغربي، ترجمة: فاضل جكتر، مكتبة العبيكان، الرياض، ط 1، 1431 هـ

جديدي، محمد، فلسفة الخبرة جون ديوي نموذجًا، المؤسسة الجامعة للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، 2004 م.

جماعة من كبار اللغويين العرب، المعجم العربي الأساس.

جيمس، ويليام، أحاديث للمعلمين والمتعلمين في علم النفس، ترجمة: محمد علي العريان، عالم الكتب، القاهرة، 1961 م.

جيمس، ويليام، البراجماتية، ترجمة: محمد علي العريان، المركز القومي للترجمة، القاهرة، 2008 م.

جيمس، ويليام، العقل والدين، ترجمة: محمود حب الله، دار الحداثة، بيروت.

ديوي، جون، البحث عن اليقين، ترجمة: فؤاد الأهواني، دار إحياء الكتاب العربي، القاهرة، 1960 م.

ديوي، جون، نمو البراغماتية الأمريكية، في كتاب فلسفة القرن العشرين، ترجمة: عثمان نوية، الإدارة العامة للثقافة، القاهرة.

زكريا، فؤاد، نيتشه، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، 2017 م.

زيدان، محمود، البراجماتيزم عند وليم جيمس (رسالة ماجستير)، جامعة القاهرة ـ كلية الآداب، 1965 م.

سروش، عبد الكريم، التراث والعلمانية، ترجمة: أحمد القبانجي، منشورات الجمل، بيروت، ط 1، 2009 م.

سروش، عبد الكريم، بسط التجربة النبوية، مؤسسة الصراط الثقافية، طهران، ط 6، 1392 ش.

شبير، محمد خضر عوض، دراسة ناقدة للفلسفة البراغماتية في ضوء المعايير الإسلامية (رسالة ماجستير)، الجامعة الإسلامية، غزة، 1431 هـ

صالح، هاني عبد الرحمن، فلسفة التربية، مطبعة الجيش العربي، الأردن، 1967 م.

صلبيا، جميل، المعجم الفلسفي، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1982 م.

عامري، سامي، العالمانية طاعون العصر.. كشف المصطلح وفضح الدلالة، تكوين، السعودية، ط 1، 1438 هـ

عبد الرحمن، هاني، فلسفة التربية، عمان، 1967 م.

عثمان، محمود عبد الحكيم، الفكر المادي الحديث وموقف الاسلام منه، الدار الإسلامية للطباعة والنشر، القاهرة، ط 3، 1985 م.

عزيزي، مصطفى، الأسس الفكرية للعلمانية عرض ونقد، مؤسسة الدليل للدراسات والبحوث العقدية، كربلاء المقدسة، ط 1، 2020 م.

عويضة، كامل محمد محمد، فريدريك نيتشه نبي فلسفة القوة، سلسلة الأعلام من الفلسفة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 1، 1993 م.

فام، يعقوب، البراجماتزم، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1936 م.

فيتز، بول سي، نفسية الإلحاد إيمان فاقد الأب، ترجمة: مركز دلائل، مركز دلائل، الرياض، ط 2، 2013 م.

قطب، محمد، جاهلية القرن العشرين، دار الشروق، القاهرة، ط 12، 1412 هـ

كانط، إمانويل، تأسيس ميتافيزيقا الأخلاق، تقديم وترجمة: عبد الغفار مكاوي، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، 2020 م.

كرم، يوسف، تاريخ الفلسفة اليونانية، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، 2012 م.

لالاند، أندريه، موسوعة لالاند الفلسفية، منشورات عويدان، بيروت، ط 1، 1996 م.

لوبون، غوستاف، حياة الحقائق، ترجمة: عادل زعيتر، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، 2012 م.

مجموعة من الأكاديميين العرب، الفلسفة الغربية المعاصرة، منشورات الاختلاف، الرباط، ط 1، 2013 م.

مصطفى، إبراهيم وآخرون، المعجم الوسيط، إسطنبول، دار الدعوة.

مصطفى، باحو، العلمانية المفهوم والمظاهر والأسباب، جريدة السبيل، المغرب، ط 1، 1432 ه.

موسى، خليل توفيق، معجم الإرشاد، دار الإرشاد للنشر، القاهرة، ط 1، 2001 م.

نوح، السيد محمد، شخصية المسلم بين الفردية والجماعية، دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع، المنصورة.

وهبة، مراد، الأصولية والعلمانية، دار الثقافة، القاهرة، 1995 م.

Refrence

Ibrahim, Zakariya, ***Studies in Contemporary Philosophy***, Misr Library, Cairo, first edition, 1968 AD.

James, William, ***Reason and Religion***, translated by: Mahmoud Hobullah, Darul-Hadathah, Beirut.

Salih, Hani Abdurrahman, ***The Philosophy of Education***, al-Jaysh al-Arabi Press, Jordan, 1967 AD.

Sleiba, Jamil, ***Philosophical Dictionary***, Darul-Kitab al-Lubnani, Beirut, 1982 AD.

Fam, Yaqoub, ***Pragmatism***, Authoring, Translation and Publishing Committee, Cairo, 1936 AD.

Mustafa, Ibrahim and others, ***al-Mu'jamul-Waseet***, Istanbul, Darul-Da'wah.

Wahba, Murad, ***Fundamentalism and Secularism***, Darul-Thaqafa, Cairo, 1995 AD.